بليـــانة

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

لست امرءاً قانطاً ولا متشائماً ولا يائساً من خير هذه الأمة العربية ، بل لعلني أشد إيماناً بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها وكرم غرائزها ، بل لعلني أشد إيغالا فى الإيمان بأنها صائرة إلى السؤدد الأعظم والشرف السرى والغلبة الظاهرة إن شاء الله ، وأنها هى الأمة التى أرصدها بارىء النسم لرد العقل على هذه الإنسانية المجنونة فى هذه الحضارة الهوجاء . فالعرب مذ كانوا هم الجوهرة التى أطبقت عليها صحراء الجزيرة ، فما زالت تكتمهم فى ضميرها وتحنو عليهم وتمنعهم من كل فساد داخل حتى صفا ماؤهم ورف شبابهم وأضاؤوا من جميع نواحيهم . فلما جاءهم محمد ابن عبد الله بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صار كل رجل من صحابته نجماً يهتدى به الضال ويأتم به المسدَّد . وبومئذ تمت المعجزة الكبرى فى تاريخ العالم ، فانطلقت هذه الفئة الصالحة من عباد الله كأنها السيل المتدفع ، وكأنها الرياح العاصفة ، وكأنها الأشعة المتلألئة ، وكأنها قدر الله ، فدكت حصون الروم ، وثلمت عروش الفرس ، ودوخت جبابرة الأمم ، حتى ورثوا أرض الله وأقاموا فيها الحق والعدل بالميزان والقسط ، وجاءت سلالتهم فجددت حضارة الدنيا ، وإذا الذين كانوا بالأمس بداة جفاة غلاظاً فيما يرى الناس من أهل الحضارات السالفة ، هم الناس وهم العلم وهم أصحاب الإمرة فى كل فن وعلم وسياسة وتدبير ملك . إنها لمعجزة لم يوفها مؤرخ حقها من المجد والقوة والظهور .

فهذا الجيل من عباد الله مطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة ، لا أظن أن الزمن قد ذهب بها ومحقها ، فلذلك أراني وملء قلبي الإيمان بأنه سوف ينتهي إلى الغاية التى كتبت له فى تاريخ هذه الإنسانية . وعسى أن يكون زمن ذلك كله قد أتى وأظل ، فإنى أسمع نشيش الحياة وهى تتخلق فى مراجل الوجود وقد أحاطت به النيران المجنونة المتضرمة من كل مكان . ولكن لابد لتحقيق ذلك كله من عمل يتولاه رجال من هذه الأمة ، فينفخون فى الضرم حتى تستعر النار الخالدة لتنفى عن هذا الجيل كل خبث ألم به من أدران الحضارة التى يعيش فيها عالمنا اليوم . غير أنى أخشى أن يكون الإهمال والعجلة وقلة المبالاة وأخذ الأمور بالاستخفاف ، مما يفضى إلى فوات الفرصة التى أمكنت ،

ثم إن الفلوصفة ذم فى موطن وصفة مدح فى موطن ، والقائل هنا هو القائل فى (أمين الرافعى) رحمة الله عليهما :

قيل : (غال) فى الرأى قلت هبوه قد يكون (الغلو) رأياً أصيلا
وقد يما بنى (الغلو) نفوسا وقد يما بنى (الغلو) عقولا

والسرف صفة ذم وقد تجدها فى أقوال مدحاً : «قيل للحسن ابن سهل : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير » .

وهل الغلو فى التخلص من الاستعباد مذموم ؟ ونحن معشر المصريين مغالون وحالنا مع هؤلاء الانجليز منذ اثنتين وخمسين سنة معلوم ، فكيف لو كنا من المقتصدين المتعدلين المتساهلين .

كان فاضل معروف من أدباء مدينتنا[1] هذه قال منذ سبع سنين مثل قولك فى ذلك البيت (ما أشبه الليلة بالبارحة) ونشر نقده فى جريدة ، وليم كما تلام الفضلاء الكرام ، وقيل له :

أخطأت ، وقد رأينا ذلك الفاضل[1] بعد أن جاء هذا الظلام وفقد الأقوام « الناطق عن خواطرهم[2] » يبكى (أبا على) فى قصائده طويلا ، ويصيح أين شوقى ، أين شاعر الإسلام ؟ !

وإذا طال المراء فى الشيء الثابت وأراد المجادل أن « يطين عين الشمس[3] » جاء قول شوقى :

ومن الرأى ما يكون نفاقا أو يكون اتجامه التضليلا
ومن النقد والجدال كلام يشبه البنى والخنى والفضولا

والفتى لا يضع منه رجوعه إلى الحق ، وهو بعد العودة (محمود) والعود أحمد .

محمد إسعاف النشاشيبى

---

(١) أعنى (القاهرة) وقد كتب المقالة ظاهريا مصريا .

(١) الأديب الكاتب الشاعر الأستاذ محمد المهباوى ، رحمه الله !

(٢) قال عبد الرحيم بن على البيانى (القاضى الفاضل) : « إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس » .
و (أحمد الثالث) فى الشعر هو متنبى الوقت .

(٣) من أمثالهم ، قال البيانى : يضرب لمن يستغرق فى الجلى الواضح .

ويقضي على هذا الأمل الذي يضيء لنا من بعيد يناديا إلى ما فيه خيرنا وخير هذا الناس

ويخيل إلى أننا نعيش اليوم في عصر بلبلة واختلاط ، وهذا شيء قد أصاب أمماً كثيرة من قبلنا ، فلم يعقها ذلك عن إدراك الغايات التي حرصت على السمو إليها وعلى بلوغها . بيد أنه لابد لأمة أرادت أن تخلص من هذه البلبلة أن يتجرد من رجالها ونسائها فئة لا ترهب في الحق سطوة ولا بطشاً ولا اضطهاداً ولا تدخر دون مطالبها جهداً ولا عزيمة ، ولا يثنيها إخفاق ، ولا تلفتها فتنة ، ولا يصرفها الفرح بقليل تناله عن الكدح في سبيل ما ينبغي أن تناله .

وقد أراد الله لمصر أن تكون في هذا العصر قدوة العرب ومجتمع أسرهم وكعبة قصادهم ، وهذه البلبلة في مصر أشد ظهوراً وغلبة منها في غيرها من بلاد العرب ، فأخوف ما نخافه أن تظل مصر غافلة عن شر هذه البلبلة فتعدى سائر العرب بالأسوة والقدوة ، فينتشر الأمر انتشاراً يعجز المخلصين أن يلموه . فبين ظهرانينا اليوم ألوف من الطلاب العرب قد جاءوا من كل قطر ليتعلموا من علم مصر ، ويعودوا إلى بلادهم ليجاهدوا في سبيلها ، فإذا أعدتهم هذه البلبلة فسوف يحملونها معهم إلى بلادهم فيفرقوا المجتمع من كلة أمرهم ، ويرتكس الأمر حتى يصبح ولا علاج له . هذا ، وأنت لاتعدم صدى البلبلة في الصحف والكتب والمجلات المصرية التي أخذت تزداد انتشاراً واتساعاً ، فكيف لا يخشى أن يعم هذا البلاء كل بلاد العرب ويتغلغل في نواحيها ؟ ويومئذ نصبح طعمة للامم الضارية التي تحيط بنا من كل مكان ، وتحد لنا أنياباً عصلا تنهشنا بها يوم يتاح لها أن تنقض على هذه الفريسة التي لا تدفع عن نفسها .

فمن شر هذه البلبلة ، ما نرى من سوء تدبير الأحزاب السياسية المصرية ، فهي قائمة على نزاع دائم في سبيل الحكم ، يكيد بعضها لبعض ، ويأكل بعضها بعضاً ، ولا يرعى أحد لأحد حرمة . وتنشيء هذه الأحزاب صحافة يكون هم محرريها التشهير بمن يخالفهم في الرأي والمذهب ، فيدلسون الحادثة ، ويكتمون الحق ، ويفترون على الناس الكذب ، ويلوون ألسنتهم بالحديث ويحرفون أعمال من يعادونهم تحريفاً ليتهم مستهجناً ، كل ذلك ابتغاء مرضاة رؤساء الأحزاب وأصحاب الأمر فيها . هذا ، على أن هذه الأحزاب قد نشأت أو أنشئت بغير أهداف مبينة للناس تعاهدهم على أن تسعى إليها ، وبغير برنامج لإصلاح هذه الأمة التي لم تجد لها نصيراً من أبنائها ، وبغير نظام ينفي عن الحزب الدخلاء والملوثين وذوي الأغراض الخبيثة .

ثم يأتي بعد ذلك نوع من الصحافة يتلبس بالورع ، ويتظاهر بالتقوى ، ويتخشع بالبراءة من التعصب ، ويبدي للناس أنه طالب خير للناس ، وأنه يريد لنفع هذه الأمة وعامل على ترقيتها وتهذيبها وهو في خلال ذلك يدس لها سماً زعافاً ومنية قاتلة ، شيئاً فشيئاً ورويداً رويداً وساعة بعد ساعة ، حتى لا تمجه الألسنة لأول مذاق ، ثم إذا بان طعمه شيئاً لم تستنكره ، ثم يستمر حتى إذا دام قليلا ألفته وربت عليه ، ثم إذا زادته شيئاً لم يكن إلا طيباً مستساغاً ، ثم إذا الناس يطلبونه أو يخيل إليهم أنهم يطلبونه لأنه مما يتصل بأدنأ الغرائز الحيوانية والشهوات البهيمية ، ويجند لكل هذا الخبث جمع من الكتاب الذين ضلوا عن حقيقة أنفسهم ، وطائفة من الشباب الذين أفسدتهم المدارس الأجنبية والجامعات الغربية عن هذه الأمة ، وهذا الضرب من الصحافة الخبيثة هو البلاء المستطير الذي لم يجد إلى اليوم من يكشف عن طواياه الخبيثة وأساليبه القاتلة ، وعن دبيبه في رأي هذه الأمة العربية دبيب الضلالة في قلب الغرير الفتون .

ثم يأتي بعد ذلك كتاب وعلماء ورجال من أصحاب الرأي ، ليس في قلب أحد منهم تقوى لله ولا خشية للاثم ولا محبة للحق ، فيرى أحدهم الرأي الفطير فلا يلبث أن يمسك القلم فيجري السواد على بياض الورق ، فإذا هي مقالة أو كتاب أو رأي أخبث منه صاحبه والناطق به ، فيأخذه المبتدىء المتطلع ، فيعتقده كأنه لقطة نفيسة بغير تحقيق ولا تمحيص ، فإذا سمع رأياً يخالف ما قرأ لهذا الكاتب البليغ أو الأستاذ الكبير أو الفيلسوف القدير ، أنكره وأدبر عنه ، فيزيده هذا الإنكار لجاجة ، وتزيده اللجاجة عناداً ، ويملأ العناد كبراً ، فيعمى عن الحق وهو بين ، ولا يزال يهوى في العناد حتى يصير ذلك عادة في مسألة بعد مسألة ورأي بعد رأي ، وإذا هو عند نفسه أكبر من أن يأخذ عن فلان لأنه يخالفه في الرأي .

وتزيد الدولة هذا الأمر ضراوة واستعاراً ، فتولي الأمور غير أهلها ، وتضع الناس في غير منازلهم ، وتكرم فلاناً بإلحاقه بوظيفة كذا لأنه من أشياع الحزب الذي يتولى الحكم ، فإذا خافت عليه أن ينتزع من مكانه إذا جاءت وزارة أخرى ، ألحقته بعمل لا يقبل العزل . فإذا جاء وزير للمعارف مثلا وله أصحاب من شيعته ممن عرفوا بشيء من الأدب ألحقه بالمجمع اللغوي مثلا

تكريماً له ، فيريد هذا الرجل أن يحقق معنى هذا التكريم على ما خيلت ، فينبرى لإبداء الرأى فيما لا يحسن ، ويكشف عن عورة من الجهل لا تستر . وليتها كانت رأياً بدا له فكان صاحبه الأول كلا ، بل هو يعمد إلى آراء أمامها الذى أمات الخرافات والأساطير فيخيل إليه أنه وهو الأديب المؤلف الكاتب مستطيع أن يحيى هذه الرمم البالية برأيه وحجته وحسن معرضه ، فكيف تكون متعبة هذا الجهل على شاب ناشئ يقرأ ملفقات السخف المدلس ، وليس عنده قدرة على تمحيصه .

ويأتى آخر يلقيه وزير صديق مثلا على كرسى الجامعة ليدرس العلم لطلاب العلم ، فإذا هو عازم على أن ينشئ علماً جديداً لطلابه ، فيبحث فى تجاريب عقله عن أشياء يخيل إليه أنها فن جديد وبلاغة جديدة وعلم لم يصل إلى إدراكه سابق ولن يناله لاحق إلا بالتلقى عنه والوقوف بين يديه . ويخرج هذا الأستاذ جيلا من مساكين الطلاب لا يحسنون شيئاً إلا التعصب له والتسمى باسمه والتشبه به فى فساد الرأى وقلة العلم وضعف الملكة . ويجتمع منهم ومن شيخهم فئة تهجم على العلم بغير علم ، فإذا أراد أحد أن يقف فى سبيلها تناعقت باسم حرية الرأى وحرمة الجامعة . فكيف تكون العاقبة إذا خرج مثل هؤلاء على الشباب الناشئين بأمثال آرائهم المقيتة الجاهلة ، وعلى رأس كل منهم تاج مكتوب عليه « دكتور فى الآداب » أو « دكتور فى الفلسفة » أو « دكتور فى التاريخ » ؟ وكيف يسلط هؤلاء على عقول ناشئة العرب ، يفتنونهم بالألقاب والأسماء ، ويتعاون هذه الفئة المضللة على نصرة بعضهم لبعض ؟

فإذا بقى الأمر على ما نرى فى أمر زعمائنا ، وفى أمر سياستنا ، وفى أمر اجتماعنا ، وفى أمر أدبنا ، وفى أمر صحافتنا ، وفى أمر مدارسنا وجامعاتنا : فكيف نرجو أن نصل إلى غايتنا ؟ وكيف يتاح لهذه الشعوب العربية الكريمة أن تتأهب للمعركة الفاصلة فى تاريخ العرب ؟ وكيف تجتمع كلمة العرب على بلوغ الهدف الأعظم ، وهو هدف يرمى إلى إنقاذ الإنسانية كلها من ردغة الخبال التى ألقت بها فيها حضارة ضخمة ، ولكنها قد حشيت شراً كثيراً وخبثاً ؟

ولو شئنا أن نتقصى ظواهر هذه البلبلة فى أشياء كثيرة مما يتعرض لها الشعب مرغماً أو مريداً أو مخدوعاً لأطلنا ، فما من شىء إلا وقد اختلط فيه الأمر على غير هدى . وإذا شئت أن تقدر سوء ما جنينا من شرها ، فجالس من شئت من طوائف الشباب وجاذبهم الحديث ، واستدرجهم إلى المناقشة فى رأى أو علم أو فن ، تسمع العجب العاجب من الخلل فى موازين الأشياء ، والحيرة المطبقة فى تقدير ما يقع تحت أبصارهم وأسماعهم ، والعجز المضطرب عن ضبط الرأى ، والضعف المطلق عن القيام بحق العقل والإدراك وأكبر من ذلك كله أنهم أصبحوا لا يرون صاحب رأى إلا وهو دونهم ، فلا يسلم من انتقاصهم وتقدمهم ، فإذا صحت لهم وأردت أن تقيمهم على الطريق استكبروا وأعرضوا ، فكيف تأتى أن تعلم حامل شهادة الحقوق أو الطب أو الأدب أو الفلسفة شيئاً يستيقن هو فى نفسه أنه قد فرغ منه وعلمه علماً ليس بعده إلا العروج إلى سماء الخلود

وكذلك الأمر فى طبقات أخرى من العلماء إلى الأدباء إلى رجال القلم إلى أصحاب الصناعات إلى عامة الناس . وهذا شىء مخوف مدمر للجهود الذى يبذلها طائفة من السلف القريب فى تسديد خطى هذا الشعب وترقيته وتهذيبه وتطهيره من الجهل والبلادة والغفلة . وإذا طال ذلك ولم نعالجه فى مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، وفى دور التسلية ، وفى أندية المجتمع ، فالعاقبة الوخيمة بالمرصاد لمن أهمل وأضاع وترك الأشياء تمضى فى غير عنان وعلى غير هدى .

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى صحافة جديدة حرة لا تخاف شيئاً ولا تخشى ، تدل على مواضع العيب لا للطعن والتشهير وسب هذه الأمة ، بل لعلاجها والدفاع عنها ونصرتها على نفسها . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى شباب من الكتاب وشيوخ من المفكرين يخلصون الرأى لهذه الأمة ، فلا يدعون الفرصة تفوت ويحملون الشعلة الجديدة إلى الجيل الجديد الذى لم يلوثه العناد والكبرياء واللجاجة والمراء . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى طائفة ممن خبروا الحياة وعرفوها ليكونوا شهداء على مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، تستعين بهم الدولة على نهج جديد يمنع عن جماهير الشباب وطوائف الأمة كل ما يزيد هذه البلبلة إغلالا وضراوة

إن الزمن يمضى مضاء حثيثاً كالنار فى الهشيم ، فإن شئنا أن نحيى وأن نستعد للذى أعدنا الله له من الظهور فى الأرض ، وإصلاح ما اختل من شئونها . فعلى كل قادر أن يجمع أمره ، وأن يدعو أصحابه ، وأن يلم الشعث المتفرق ممن يظن فيهم خيراً ، لكى يتعاونوا جميعاً على رد هذا البلاء بالرفق فى مواضع الرفق ، وبالبأس فى مواضع البأس ، وبالبتر حيث لا يجدى شىء إلا البتر بلا هوادة ولا رحمة ...

محمود محمد شاكر